لننظر كيف تعملون

بقلم الشيخ؛ سيف الدين الأنصاري

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس:14].

قال الشوكاني رحمه الله: (أي لكي ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشر، وكيف في محل نصب بالفعل الذي بعده، أي لننظر أيَّ عمل تعملونه، أو في محل نصب على الحالية، أيْ على أيِّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف) [التفسير:2/230].

فللناس في الماضي بصائرُ يهتدِي عليهن غاوٍ أو يسيرُ رشيدُ

إن كثيرا من معاني الضعف التي تعاني منها الساحة الإسلامية اليوم ناتجة أساسا عن السطحية المتناهية في التعامل مع العمل بهذا الدين وله، والإهمال الكبير لتكيفه الدقيق مع المعطيات الموجودة والمآلات المرجوة، وهي نتيجة طبيعية للانشغال بـ"فقه الكلام" عن فقه العمل، والإغفال الكبير لسنن الله في الخلق والأمر، حتى أصبحت الحركة الإسلامية تزرع وسواها يحصد، وهي تبني وغيرها يستولي، وساعد على رسوخ هذا الواقع المؤلم الجمودُ على أساليب في العمل تناسب أوضاعا ومعطيات قد دخلت في خبر كان، والاستنساخُ السلبي للتجارب من غير اعتبار جاد لخصوصيات معطياتها [1].

والإهمال الملاحظ لضوابط الكيف عند إرادة التنزيل هو الذي أدى إلى تزاحم الأخطاء وتوالد العلل وتراكم الأمراض، حتى أصبحنا ندور في دوامة خطيرة من التآكل

[1] والأمَرّ من ذلك أن تجد من يقبل على اللعمل الإسلامي في أكبر حجم له لكن دون أدنى محاولة للاستفادة من تجارب الذين سبقوه على الطريق، فتتكرر الفواجع، وينتهي العمل عند مرحلة الإرهاصات، ويعيش العاملون -دائما- مع البدايات، ولا يؤخذ أكثرهم -حفظهم الله- إلاّ بتهمة "المحاولات".

الذاتي، وحلقة مفرغة من الصراعات الداخلية، وسلسلة متلاحقة من الاهتزازات التنظيمية، وهذه كلها عوامل ذاتية أعاقت المسيرة المباركة للطائفة المنصورة، وشغلتها بمشاكل استنزفت قوتها في معارك جانبية فوتت على العاملين كثيرا من الفرص السانحة، وأضاعت عليهم كثيرا من الجهود الصادقة، مما يقضي بضرورة وقفة على الطريق لتدارك الأخطاء التي وقعت، والتي -وللأسف- لازالت تقع، وللنظر في ضوابط الأداء التي تفي بالمتطلبات العملية للمنهج الشرعي، فقد غيب أكثرها تحت زحمة الأحداث، وتجاوز العاملون أبسط مفرداتها تحت ضغط الاستفزازات.

وإنما يتضح هذا المعنى من خلال ما يلي:

أولا: إن العبادة هي الغاية التي خلق الناس لأجلها:

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:56]، وهذه العبادة متوقفة على التزام الأمر الشرعي إرادة وتنزيلا، إذ لا يكفي في التعبد صدق الإرادة فحسب وإنما لابد معها من صواب العمل، قال تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك:02]، قال الحسن البصري: (أخلصه وأصوبه).

وقال ابن تيمية رحمه الله: (فحقيقة الأمر أن كل عبد محتاج في كل وقت إلى طاعة الله ورسوله، وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت، وطاعةُ الله ورسوله هي عبادة الله التي خلق لها الجن والإنس) [المجموع:10/456].

ثانياً: إن من فقه هذا الدين الحكمة في تنزيله:

قال ابن القيم رحمه الله: (لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعا وقدرا، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاثة بأن تُعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون متعديا مخالفا للحكمة، ولا تطلبْ تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها، وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا...

فالحكمة إذا فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي) [المدارج:2/479].

قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة:269] [2].

ثالثاً: إن المقصود الأصلي من الجهاد هو إظهار الدين:

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:33]، وقال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:39]، قال الله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء: 84].

وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [متفق عليه].

إن الإسلام لم يطلب منا أن نكون أناسا عمليين فحسب، فتلك مسلمة من مسلمات هذا الدين ، [3] وإنما طلب منا كذلك أن نهتم بالكيفية التي ينبغي أن يكون عليها عملنا، قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس:14]..

ورعايةُ هذا الكيف -باعتباره سنة شرعية وكونية تقتضيها حكمةُ التنزيل وضوابط التعبد- تفرض على العاملين مراجعةَ المخزون الفكري الذي ورثوه خلال هذه المرحلة، فقد خالطته أعراف لا تصلح أن تكون إلاّ صورا للمفاهيم على بعض ظروفها، وإعادةَ النظر في آليات الخط العملي الذي يسيرون عليه نحو التمكين لهذا الدين، فقد تناثرت على كثير من مفرداته غبار التاريخ، بل ربما أصبح فصلا من مقررات البرنامج التكوني لأجهزة المخابرات العالمية يمهد للدارسين طريق الاختراق ويسهّل عليهم لعبة الاحتواء. والمطلوب أن نتفاعل مع كل مرحلة بحسب متطلباتها، ومع كل ظرف بحسب معطياته.

---

[2] قال ابن القيم رحمه الله: (فأكمل الناسس أوفرهم منها نصيبا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال أقلهم منها ميراثا، ولها ثلاثة أركان: العلم والحلم والأناة، وآفاتها وأضدادها: الجهل والطيش والعجلة، فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول) [مدارج السالكين].

[3] راجع مقال " أين العمل؟ " من هذه السلسلة.

قال ابن القيم رحمه الله: (فالحكمة إذن: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي) [المدارج] [4].

والعمل الإسلامي مشروع جماعي متكامل يهدف إلى تغيير جذري للواقع الجاهلي، بأداء متوازن تتحدد فيه سياسة التحرك من خلال التقييم الجيد للمعطيات الذاتية، والمعرفة العميقة بطبيعة الظروف الموضوعية، وينتظم فيه البناء الداخلي تبعا لضوابط الكفاءة والأمانة، مع ملاحظة متطلبات المرحلة، ومقومات الاستمرار، بعيدا عن الارتجال الذي يحركه الاستفزاز فيؤدي إلى الخلط بين المراحل ويقزم المفاهيم ويختزل الأداء، أو الفوضى التي تبعثر الصف وتضعف فاعلية العطاء.

إن دماء الشهداء -رحمهم الله- التي سالت على هذا الطريق تفرض على الذين جاءوا من بعدهم أن يكملوا السير بلا تردد، وأن يواصلوا العمل بلا توقف، لكن هذه المرة بفقه للشريعة أعمق، ووعي بالواقع أدق، فالجهاد ليس حبا للشهادة فحسب، فلا يستحضر له من المقاصد إلاّ معانقة الحور، ولا هو فورة حماسة آنية فلا يطلب لها إلاّ شجاعة الرجال، وإنما هو -مع ذلك كله- حرب تحمل في طياتها مشروعا سياسيا يهدف إلى إقامة دولة إسلامية يُعز بها أمر هذا الدين وتستأنف بها حياة الخلافة!!

وهذا يفرض علينا أمورا كثيرة أهمها:

<u>أولا: التحديد الدقيق للعمل؛</u>

والانتقال من عقلية التعامل السطحي مع المفاهيم الإسلامية إلى البيان الواضح للمدلول الذي تتجلى به معالم المسار، وتتحدد به ثوابت العمل، لأن الإجمال في مقام التفصيل مذموم، والحركة مع ضباب الرؤية توقع في الحفر، وقد تخرج العامل عن الطريق، والشعار الفضفاض بضاعة مزجاة في سوق أهل الحزم، فاسأل نفسك ماذا

---

4 وهذا يقضي بضرورة ملاحظة الفوارق الطبيعية بين الأقطار، مع الاهتمام بما تتسم به المرحلة الراهنة من مؤامرات تستهدف احتواء المد الإسلامي، وتحالفاتٍ أمنية وعسكرية عالمية يصعب أن تجتمع إلاّ على محاصرة العاملين لهذا الدين، واعتبار هذه الملاحظات عند إرادة تحديد سياسة التحرك، لتكون الدعوة هادفة، والبناء متقنا، والإعداد متكاملا، والجهاد مؤثراً، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء) [مسلم:1955].

أريد بالضبط؟ فإن ذلك أوفر للجهد، وأفضل لبلوغ المقصود، أبلغ في تمييز العبادة عن العادة.

ثانياً: التحديد الجيد للكيف؛

والحرص على سلامة الممارسة وحكمة التنزيل، والاهتمام بالأداء النوعي للعمل، وتجاوز مرحلة الانفعال العاطفي الذي لا يستند إلى مشروع مدروس، والارتجالِ الفردي الذي يخضع لحالات المد والجزر، بأحكام التنظيم وتدقيق التخطيط، وتحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق الأهداف، والأساليب المناسبة لظروف العمل، مع التركيز على كل ما من شأنه أن يضمن صلابة البناء، وفاعلية الأداء، قال تعالى: {لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس:14].

قال أبو السعود: (ففيه إشعار بأن المراد بالذات والمقصود الأصلي من الاستخلاف إنما هو ظهور الكيفيات الحسنة للأعمال الصالحة) [التفسير:4/127]، فتأمل.

ثالثاً: التطوير الدائم للأداء؛

والانتقال المستمر بالعمل من حال إلى التي هي أحسن، بتدليل العقبات وإعداد الأدوات، فإن من أهمل الإعداد فاته المراد، والاجتهاد في اكتساب مقومات القوة، واستدراك جوانب النقص، للوصول بالعمل إلى مستوى الآمال المرجوة والتحديات الموجودة، قال تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [الملك:02].

قال البيضاوي: (وإنما ذكر صيغة التفضيل ... للتحريض على أحاسن المحاسن، والتحضيض على الترقي دائما في مراتب العلم والعمل) [التفسير:3/222].

فخذ للأمر عدته واستعن بالله ولا تعجز، واستفرغ الوسع في حسن التنزيل، فـ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون) [مسلم:2742]، واتعظ بالتاريخ، ولا تنس فضل السابقين، واسأل الله التوفيق، فما النصر إلاّ من عند الله. واعلم أن العمل بهذا الدين ولِه محلٌ لنظر الرب من العبد، فاستحضر بصدق {لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس:14]، وأن من عمّر قلبه بإخلاص القصد وسلامة الصدر سهل عليه إدراك المراد.

وإنمـا يطيـل اللسـان مـن يتوسـع فـي الأمـاني فيقعـد أو يتطاول، فـاعرف موقعـك بصـدق، وكـرر النظـر يـؤذن لـك بالمزيـد، ولا تـذهب بعيـدا فـإن "أيـن العمـل؟".. كفيـل بالتوازن.

إن الاستخلاف وعد لا يتخلف، والدعوة والجهاد طريق لا بـديل عنـه لبلـوغ المقصـود، لكـن دونـه سـنن سـير اللـه بمقتضاها حركة الحياة فـي هـذا الكـون فلا تعانـدوها فإنهـا غلابـة، قـال تعـالى: {إِنَّـا لا نُضِـيعُ أَجْـرَ مَـنْ أَحْسَـنَ عَمَلاً} [الكهف:30]، وإلاّ فكم من مريد للخير لم يبلغه!! فاعمـل عمـل مـن يـوقن بـ {إِنَّ اللَّـهَ لا يُصْـلِحُ عَمَـلَ الْمُفْسِـدِينَ} [يونس:81]. ومن أراد النتائج من غيـر مقـدماتها المناسـبة رام المحال، ومن ألغى اعتبـار الحـال أو أهمـل النظـر فـي آثار المآل فاته حسن التنزيل، وابتعدَ عن حقيقة التعبد، قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّـهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلا صَـالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:110].

فهذا ندائي سائلا متأملا إلى أين أمة الجهاد نسيرُ؟

والحمد لله، وهو ولي التوفيق

كتبه؛ سيف الدين الأنصاري
مكتبة الأنصار

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

w.dehwat.www//:ptth
dqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth